سؤال

استدلال الشيخ مصطفى صبري على وجود الله في السياق الحداثي

محمد سامي

ع | ورقة بحثية رقم (٤) | مسلسل رقم (٥) ٢٠١٨

مُبادَرات طابة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

استدلال الشيخ مصطفى صبري
على وجود اللّه في السياق الحداثي

تأليف

محمد سامي

باحث

الترقيم الدولي : 978-9948-466-2

الاستدلال على وجود الله

www.tabahfoundation.org

جميع الحقوق محفوظة © ، يمنع إنتاج أو توزيع أي جزء من هذا الإصدار بأي وسيلة دون موافقة خطية صريحة من مؤسسة طابة ، إلا في حالات الإقتباس المختصر مع العزو الدقيق ، والكامل في المقالات النقدية ، أو المراجعات .

نبذة عن مؤسسة طابة :

هي مؤسسة غير ربحية تُعنى بتقديم أبحاث ومبادرات واستشارات وتطوير كفاءات، وتسهم في تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر للاستيعاب الإنساني، وتسعى إلى تقديم مقترحات وتوصيات لقادة الرأي لاتخاذ نهج حكيم نافع للمجتمع بالإضافة إلى إعداد مشاريع تطبيقية تخدم المثل العليا لدين الإسلام وتبرز صورته الحضارية المشرقة مستندين في ذلك على مرجعية اصيلة واستيعاب للتنوع الثقافي والحضاري والانساني.

نبذة عن مبادرة سؤال :

"سؤال" مبادرة مجتمعية ترحب بالأسئلة الوجودية الشائعة بين الشباب والالتزام بحوار هادئ يحترم عقل الإنسان، ويملأ قلبه، ويناسب وجدانه وتعمل على خلق مساحة للاستفادة المتبادلة بين فريق المبادرة والشباب، من خلال عدة فعاليات وأنشطة متنوعة لمناقشة الأسئلة التي تشغل الأذهان، وتعتبرها شرائح مختلفة من المجتمع أسئلة محرمة أو ممنوعة، مبادرة " سؤال" لا سقف لديها للأسئلة مهما كانت جرأتها أو حساسيتها، وقدوتنا في ذلك سيدنا عبد الله بن عباس حينما قال أنه أوتي العلم بسبب لسان سؤول –أي كثير الأسئلة– وقلب عقول.

نبذة عن الباحث

محمد سامي:

باحث متخصص في الفلسفة وعلم الكلام واللاهوت في مؤسسة طابة وجامعة أوكسفورد. حاصل على ماجيستير في الفلسفة وبكاليريوس في الاقتصاد، كلاهما من الجامعة الأمريكية بالقاهرة. درس مقدمات في العلوم الشرعية على يد شيوخ وأساتذة من اليمن ومصر وموريتانيا وبريطانيا.

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مقدمة:

الإسلام دين يطالب أتباعه بأن يؤمنوا بالله، وبملائكته، وبكتبه، وبرسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. ولا تكتفي هذه المطالبة بالإيمان الأعمى لكن يطالب هذا الدين أتباعه بأن يكون إيمانهم إيمانا جازما لا يجوِّز نقيضه. بمعنى أن المسلم يطالب أن يكون متأكدا بنسبة مائة بالمائة بأن ما يؤمن به صحيح، وأن من لا يؤمن بالإسلام فهو حائد عن الصواب. لكن كيف يتصور ذلك، ويكون معقولا، في ظل ثقافة الشك التي تعتري العديد من جوانب الحياة؟ وفي ظل فقدان الحضارة المهيمنة على العالم في قيمة المطلق؟ وفي ظل تخطي الحضارة لأهمية الأديان ودورها في حياة الأفراد والشعوب؟

من المهم التأكيد على أن علماء الدين الإسلامي على مر التاريخ لم يقبلوا أن يترك المسلم نفسه للشك، بل أقاموا أدلة عقلية يقينية على صحة العقائد الدينية بحيث يمكن للشخص الذي تراوده الشكوك أن يتأملها وينظر فيها حتى تزول عنه الشبهات العقلية التي تعتريه. وأوجبوا على من تأتيه أسئلة أو شكوك أن يسارع في تداركها والبحث عمن يحل له الإشكال الذي عنده وقد ساعد على ذلك الثقافية العلمية والفكرية التي كانت تشجع على التساؤل وتنمي ثقافته بين المشتغلين بالعلم. لكن هذا التراث اختفى مع ضعف المنظومة العلمية الدينية حتى غاب وجوده عن الأذهان وصار المسلمون لا يعرفون شيئا عن تراثهم الفكري، واستبدلوه بمفاهيم فكرية غربية لا تؤمن بإمكان الوصول لحقيقة مطلقة، مع أن

هذه المفاهيم البديلة ليست أقوىٰ فلسفيًا من المفاهيم الإسلامية كما سيتبين في الصفحات التالية.

لقد حققت الحداثة إنجازات مادية لا يمكن لأحد إنكارها، واستطاع الغرب من خلالها رفع مستوىٰ معيشة بلاده وتحقيق أقدار من الرفاهية لم تكن تخطر ببال أحد من العصور السالفة، واستطاعت بلاده العظمىٰ أن تسيطر علىٰ العالم شرقا وغربا، وأن تغتصب وتحتل البلاد الأخرىٰ التي من ضمنها البلاد الإسلامية. وقد سارع أهل الدول الإسلامية بإرسال أبنائهم لتعلم مبادئ الحضارة وأصولها في الدول الأوروبية في محاولة للحاق بركبها، وقد كان لهذا التعلم أثرا بالغا في عقليات النخبة المتعلمة في هذه الدول التي من ضمنها مصر. ومن ضمن الأفكار الدخيلة التي دخلت علىٰ النخبة الثقافية المصرية المسلمة فكرة عدم إمكان الاستدلال علىٰ وجود خالق للكون، وعلىٰ صحة الدين، فأصبح الدين في عقول الكثيرين إما مخالفًا للعلم ينبغي تخطيه وإما أمرًا قلبيًا يمكن للمرء اعتناقه لكنه لا يمكن الاستدلال علىٰ صحته عن طريق العقل.

وقد أدىٰ هذا التغير الشديد في العقلية المسلمة إلىٰ خلافات فكرية بين المثقفين العصريين وبين علماء الدين، ومن ضمن علماء الدين هؤلاء شيخ الإسلام مصطفىٰ صبري الذي كان آخر شيخ للإسلام في الدولة العثمانية. تميَّز الشيخ مصطفىٰ صبري في هذه النقاشات بإدراكه لعمق الخلاف الذي هو في الأصل خلاف فلسفي بين علم الكلام الإسلامي وبين فلسفة الحداثة، فقرر أن تكون مناقشته لهذه الأفكار من خلال أصولها

الفلسفية، بدلًا من الغوص في الفروع المترتبة على هذه الأصول. فالخلاف البسيط في اتجاه نقطة البداية يكون أثره كبيرا في منتصف الطريق أو في آخره. في هذه الورقة إن شاء الله استعرض مسألة مهمة من مسائل الخلاف بين الشيخ مصطفى صبري وبين المثقفين المصريين في عصره وهي مسألة إمكان الاستدلال على وجود الإله. وسيتكون هذا البحث من أحد عشر فصلًا. الأول هو هذه المقدمة، والثاني يستعرض نشأة الشيخ مصطفى صبري العلمية، والثالث يبيِّن طبيعة الخلافات الفكرية التي واجهها عند مجيئه إلى مصر، والرابع يحصر مسائل الخلاف بينه وبين المثقفين العصريين في مسائل من ضمنها مسألة الاستدلال على وجود إله، والخامس فيه استدلال الشيخ مصطفى صبري على وجود الإله، والسادس يعرض اعتراضات الفيلسوف الألماني المعروف إيمانويل كانط على أدلة إثبات وجود الإله، والسابع يبيِّن نقد صبري لكانط، والثامن فيه مقارنة الشيخ مصطفى صبري بين العلم المستفاد من العقل والعلم المستفاد من التجربة، والتاسع فيه رأيه في فهم معاصريه للفلسفة، والعاشر فيه توضيح الشيخ مصطفى صبري لجدوى مثل هذا النقاش، ثم خاتمة تطرح فيها بعض الأسئلة للمهتمين بالحياة الفكرية اليوم.

الشيخ مصطفى صبري ونشأته الفكرية:

الشيخ مصطفى صبري هو آخر من تقلد منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية وهو أعلى منصب ديني فيها. تقلد هذا المنصب إلى أن سقطت الدولة العثمانية وتحولت تركيا إلى دولة علمانية. تلقى الشيخ مصطفى صبري العلوم الدينية في أواخر

القرن التاسع عشر في فترة كان حالة العلوم العقلية في تركيا قوية جدا. فقد كان إنتاج كتب الفلسفة مستمرا في هذه الفترة على أعلى مستوى، ومن أمثلة ذلك كتاب مثل كتاب البرهان في المنطق الذي ألفه العلامة إساعيل الكلنبوي الذي توفي عام ١٧٩١م أي قبل دراسة الشيخ مصطفى صبري للعلوم العقلية بأقل من قرن. لم يكن هذا الكتاب هو آخر ما ألف في االفن بل ألفت عليه شروح وحواشي منها حاشية الشيخ عبد الرحمن البنجويني والقرة داغي مما يدل على أن التأليف الفلسفي كان حيًا في فترة نشأة الشيخ مصطفى. وقد ذكر الدكتور خالد الرويهب الأستاذ في جامعة هارفارد أن الحياة الفكرية في القرن السابع عشر هي قمة الحياة الفكرية في العالم الإسلامي وأن المؤلفات الفلسفية في الدولة العثمانية كانت على أعلى مستوى، وذكر في كتابه[1] العلامة الكلنبوي الذي عاش في القرن الثامن عشر وكان امتدادًا للقرن الخصب فكريًا الذي سبقه. ومن الجدير بالذكر أن الكلنبوي كان يدرِّس الرياضيات الحديثة في المدرسة الهندسية الحديثة في تركيا مما يدل على سعة اطلاعه على العلوم الجديدة في عصره.

نشأ الشيخ مصطفى صبري في هذه الحقبة الغنية بالتأليف الفلسفي، ولم يكتف بدراسة التراث الفلسفي الإسلامي فدرس فلسفة الحداثة في كتب مترجمة إلى التركية والعربية، أبرزها كتاب المطالب والمذاهب لبول جانت وهو موسوعة فلسفية مترجمة من الفرنسية، وكتاب قصة الفلسفة الحديثة للأستاذ أحمد أمين والدكتور زكي نجيب محمود.

(١) انظر الفصل الأول من كتابه:

Islamic Intellectual History in the Seventeenth Century.

ولما انتقل الشيخ مصطفى صبري إلى مصر، صدم بأن الحالة الثقافية في بلاد الأزهر تنتشر فيها العلمانية انتشارًا وحشيًّا وصل إلى الأزهر نفسه، فاضطر إلى خوض نقاشات فكرية موسعة مع مثقفي مصر. ما صدم الشيخ مصطفى هو أن قضايا أساسية في الدين تطرح بشكل غير الذي تلقاه من تعليمه الإسلامي التراثي، ولاحظ الشيخ أن هذا الطرح الغريب عن الإسلام ليس ناتجًا عن فهم أصيل للإسلام لكن عن فكر مستورد فقرر أن يناقش هذا الفكر. فنجد الشيخ ينتقل من مناقشة الشيخ محمد عبده والأستاذ محمد فريد بك وجدي والأستاذ أحمد أمين إلى مناقشة إيمانويل كانط وفردريش هيجل وأوجوست كومت، وهذا أمر لم نعهده من الشيوخ المعاصرين وإن كان هو دأب علماء الإسلام على مر العصور، فنجد أسماء فلاسفة اليونان وأفكارهم حاضرة في كتبهم.

في هذه الورقة القصيرة لن أستطيع أن أجمع كل ما ناقشه الشيخ مصطفى صبري بخصوص فلسفة الحداثة، فسأقتصر على مسألة وجود الإله التي تأثر الفكر المعاصر فيها كثيرًا بكانط. إن شاء الله أعرض استدلال الشيخ مصطفى صبري على وجود الإله، ثم اعتراضات كانط على أدلة وجود الإله ونقد الشيخ مصطفى صبري لكانط. لكن قبل ذلك، سأعرض مشاهد من الأفكار الدينية التي دعت الشيخ مصطفى صبري للخوض في مثل هذا النقاش.

معاصرو الشيخ مصطفى صبري وأطروحاتهم الدينية:

مناقشة الشيخ مصطفى صبري مع معاصريه بدأت بالصحف العامة ثم تحولت إلى

فكرة كتاب سماه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسَلين". هذا الكتاب مكوَّنٌ من أربع مجلدات الأول يسرد فيه القضايا الفكرية التي رآها تطرح في الساحة الفكرية المصرية والتي لم تعجبه ورآها مخالفة لما تلقاه من العلم الديني، والثاني في الاستدلال على وجود الله ومناقشة الاعتراضات الغربية على هذه الاستدلالات، والثالث ناقش فيه الشيخ مفهوم الوجود، والرابع في كلام عن طبيعة المعجزة وكونها دليل على صدق النبوة.

الاسم الأكثر تكررًا في امثلة الشيخ مصطفى صبري على الانحرافات الفكرية التي رآها تطرح في الساحة الفكرية العامة اسم الأستاذ محمد فريد بك وجدي[٢] الذي كان رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر. رأى الشيخ مصطفى أن الفكر الإلحادي يتسرب من خلال كتابات هذا الأستاذ، وأشار في عدة متواضع أن هذا التسرب متعمَّد بدليل عدة فقرات من كلام الأستاذ قبل رئاسته للمجلة:

> ولد العلم الحديث وما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره فتغلَّبَ عليها ودالت الدولة إليه في الأرض فنظر نظرة في الأديان وسرى عليها بأسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير). ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض واتصال أساطيرها ببعض، فجعل من ذلك مجموعة تُقرأ لا تُقَدَّسُ تقديسا، ولكن

(٢) الكلام عن معاصري الشيخ مصطفى صبري ليس بالضرورة تبنيًا من كاتب الورقة لكلام الشيخ. المقصود من نقله نقل رأي الشيخ فيهم بما يوضِّح الأسباب الدافعة للشيخ مصطفى على كتابة ما كتب.

ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه ويقف على صيانتها جهودَه غير مدخر في سبيلها روحه وماله[٣].

هنا يتكلم الأستاذ وجدي عن أن العلم الحديث قذف بالأديان إلى عالم الأساطير، ونزع عنها قداستها، وأصبحت دراستها ليست من باب معرفة ما يطلبه الله من عباده والسبيل الذي ارتضاه لهم كي يعرفوه ويعبدوه حق عبادته لكن من باب الاهتمام التاريخي الذي يهتم بالأفكار التي أثرت على المجتمعات الإنسانية وشكلت وجدانه وطريقة تفكيره وصوره الذهنية. وهذا الكلام مقتضاه أن العلم يثبت أن الأديان ما هي إلا أساطير، وأنها ليست متضمنة للحقائق إنما هي نتاج للمجتمعات التي نشأت فيها وهي عبارة عن مجموعة من التصورات في ذهن الإنسان استعبد لها نفسه.

هذا الكلام للأستاذ فريد وجدي عن الأديان إجمالًا لا يظهر أنه يقصد فيه دينًا معيَّنا، مع أن هذا الصراع بين الدين والعلم نشأ في أوروبا المسيحية. لكن الكلام كذلك يحتمل أن يكون على الدين المسيحي لأن الكتابات الحداثية تتكلم عن الدين بشكل عام لكن التصور عن الدين الذي في هذه الكتابات يكون مسيحيا نظرًا لأن الحداثة نشأت في أراضي أوروبا المسيحية. والسؤال هنا: هل يعتبر الأستاذ وجدي الإسلام من جملة الأديان التي قذف العلم بها إلى عالم الأساطير؟ الشيخ مصطفى صبري يرى أن الأمر

---

(٣) انظر نقله عنه في كتاب موقف العقل والعلم والعالم الطبعة الثانية (لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م)، ص. ١٦٥-١٦٦/ ١.

كذلك ومن ضمن العبارات التي استشهد بها على كلامه هذه العبارة للأستاذ وجدي:

> وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مئة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية، ويقتبس من مدنيته المادية، فوقف فيما وقف على هذه الميتولوجيا ووجد دينه ماثلا فيها، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية(٤).

هذه العبارة للأستاذ وجدي فيها أكثر من معنى. منها أن المسلمين لما اطلعوا على علوم الغرب وجدوا أن من ضمن هذه العلوم علم الأساطير الذي وجدوا الأديان قد اعتبرت من ضمنه، ووجدوا أن دينهم الإسلامي مثله مثل بقية الأديان اعتُبِر في العلم الحديث -الذي يعتبره الأستاذ وجدي هو العلم ولا علم غيره- من جملة الأساطير التي لا تُقدَّس بل ينظر فيها كما ينظر في أي موروث بشري. ومنها أن المسلمين لم يجدوا ما يدافعوا به عن دينهم أمام ما يقدمه العلم وأن الأمر أكبر من المحاولة فضلًا عن التنفيذ. ومنها أن هؤلاء الناس الذين ارتشفوا من مناهل الغرب العلمية لم يجدوا أمامهم إلا أن يلحدوا، ولكنهم استبطنوا إلحادهم ولم يظهروه، مع تيقنهم أن كل من يطلع على ما اطلعوا عليه سوف يتوصل إلى من توصلوا هم إليه وهو الإلحاد. وهذا الكلام من الأستاذ وجدي يشير إلى اقتناعه بأنه لا مفر عن الإلحاد إن اختار الإنسان العلم مسلكًا

(٤) المرجع السابق، ص. ١٦٦/ ١.

له في حياته، فيصبح الإنسان مخيرًا بين العلم والدين ولا يسعه أن يختارهما معًا. فالشيخ مصطفى صبري وجد هذا الكلام عند الأستاذ وجدي عمن استبطن الإلحاد ولم يصرح به، ووجد عبارة أخرى توضِّح الدور الذي يلعبه هؤلاء المستبطنين للإلحاد:

> وقد نبغ في البلاد الإسلامية كُتَّاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسًّا في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديا من أن يُقاطَعوا أو ينفوا من الأرض[٥].

هذه العبارة تفيد أن الذين ذكر الأستاذ وجدي أنهم مستبطنون لم ينفضوا يديهم عن القضايا الفكرية والدينية بالكلية لكنهم لوهم دور إيجابي في الحياة الثقافية. فهم يدعون إلى ما يتبنوه ليس بالمصارحة لكن من خلال تقديم أنفسهم على انهم مسلمين لكنهم يدسُّون في كتاباتهم ما يهيِّئ الأذهان لاستقبال العلم الحديث وما يقتضيه من قذف الأديان إلى عالم الأساطير ونزع القداسة عنها. فما الذي يمنع كون الأستاذ وجدي من هؤلاء الناس؟

ومما أثار تعجب الشيخ مصطفى صبري أن الأستاذ وجدي ومن يوافقه في الفكر لا يتعرضون لعلم الكلام وهو العلم المعني بإثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية. فإن كان العلم الحديث قد قذف بالأديان إلى عالم الأساطير، فهل كان هذا بناء على انتصار له على علم الكلام المدافع عن الدين الإسلامي؟ أم أن علم الكلام عاجز حتى عن محاولة

---

(٥) المرجع السابق.

المواجهة؟ الأستاذ وجدي -حسب تقديم الشيخ مصطفىٰ لفكره- لا يعتبر لعلم الكلام دور في هذه القضية دون أن يوضح أسبابًا علمية وفلسفية لعدم قدرته. فهو يرفض فكرة مراعاة علم الكلام من حيث الفكرة، ويعتبره علمًا دخيلًا علىٰ الإسلام ولا صلة له به[٦]، ويقول أن طبيعة الدين الإسلامي تمنع أن ينشأ فيه مثل هذا العلم، ويقول:

> إن مضي مائة وخمسين عاما علىٰ أمة أتمت فيها نشوءها وتطوراتها الاجتماعية والأدبية ووصلت إلىٰ أبعد فتوحاتها وهي طوال ذلك العهد الذهبي لا تحتاج فيه لعلم الكلام لَأدل دليل علىٰ أن هذا علم دخيل لا فائدة لا في تقوية إيمان ولا في تأييد عقيدة ولا في إنارة طريق[٧].

هذا رأي الأستاذ وجدي في علم الكلام وأهميته، والذي لا يتعرض لمحتوىٰ علم الكلام بل إلىٰ قضايا تاريخية متعلقة بانتشار الإسلام لا تصلح لأن تكون معيارًا في الحكم علىٰ قدرة علم من العلوم علىٰ الاستدلال علىٰ المسائل التي يطرحها ويتبناها.

وهذا الرأي في علم الكلام لم يجده الشيخ مصطفىٰ صبري عند الأستاذ وجدي فقط، لكن وجده عند العديد من الرموز الفكرية لعصره مثل الأستاذ أحمد أمين والشيخ محمد عبده. فالأستاذ أحمد أمين كان يرىٰ أن قانون عدم التناقض الذي هو من أُسس علم الكلام قد تم نقضه والقضاء عليه بفلسفة هيجل:

---

(٦) جدير بالذكر أن الأستاذ وجدي يقول هذا الكلام كمسلم. فهو يرى أن دينه في غنًى عن هذا العلم الدخيل.

(٧) المرجع السابق، ص. ٢٠٠/ ١.

إن قانون التناقض الذي يقوم به المنطق الشكلي القديم والذي يقرر أن الشيء يستحيل أن يكون وأن لا يكون في آن واحد يجب عليه الآن أن يزول من أجل حقيقة هيغل العليا التي تنسجم فيها المتناقضات والتي تذهب إلى أن كل شيء يكون موجودا وغير موجود[٨].

هذا الكلام للأستاذ أحمد أمين يبيِّن تبنيه لمفاهيم من فلسفة الحداثة على مفاهيم الفلسفة القديمة التي يتبناها علم الكلام. فبطلان التناقض عند المتكلمين من المبادئ الأولى التي لا يستطيع الإنسان الشك فيها وببطلانها تبطل جميع العلوم، وهو الأستاذ أحمد أمين ليس بباطل. لذلك قال الأستاذ أحمد أمين أن "علماء التوحيد لم ينجحوا في مهمتهم" واستدل على ذلك بأن الإسلام دخل قلوب الناس عن طريق التصوف والروحانيات وليس عن طريق علم الكلام.

ووجد الشيخ مصطفى صبري في كلام الشيخ محمد عبده تضعيفًا لأدلة المتكلمين على وجود الإله والتي تنبني في رأي الشيخ مصطفى على بطلان التسلسل. فالشيخ محمد عبده لم يكن ير أن التسلسل باطل وبالتالي وجد أن ما بني على بطلان التسلسل لا يصح أن يكون دليلًا لأن إحدى مقدماته وهي بطلان التسلسل فاسدة. وهذا لا يعني أن الشيخ محمد عبده كان يرى عدم إمكان الاستدلال على وجود الله. غاية ما في الأمر أنه كان يرى طريقًا للاستدلال غير طريق المستدلين. قال فيما ينقله الشيخ مصطفى صبري عنه:

(٨) المرجع السابق، ص. ٣١/ ١.

وجميع ما قالوه في إبطال التسلسل من البراهين فإنما هو مبني على أوهام كاذبة. وإلى الآن لم يقم برهان خطابي فضلا عن يقيني على وجوب تناهي سلسلة اجتمعت أجزاؤها في الوجود أو الترتيب أو لم يكن كذلك. وطريق إثبات الواجب متسع لنا فيه مندوحة عن ارتكاب هذه الأوهام[٩].

هذه العبارات لم تكن الوحيدة المعبرة عن مخالفات صريحة لمثقفين عصر الشيخ مصطفى لما استقرت عليه البيئة العلمية الإسلامية التي نشأ فيها الشيخ. فقد كانت هناك تصريحات بأن الغيب هو أمر يخالف الواقع، وأن المعجزات التي هي من خوارق العادات تعتبر شبه وليست أدلة وأنها لا تقع تحت العقل فبالتالي يجب رفضها، وأن البعث بعد الموت كذلك مما يخالف العلم فينبغي تأويل آيات البعث في القرآن.

المستوردات الفلسفية الغربية:

من الأمثلة المذكورة أعلاه يتضح تأثر الثقافة المصرية العصرية بعدة مفاهيم مستوردة من أوروبا. أولها أن العصور الوسطى عصور ظلامية ينبغي تجاوزها بكل ما فيها. فالأديان لم تعد بالقداسة التي كانت بها في العصور الوسطى، والسبب كما قدمته الحداثة هو أن العلم والعقل أجابوا على الأسئلة التي كان الدين يقدم لها إجابات، وأن إجابات العقل والعلم أقرب للتصديق من الإجابات الدينية خاصة وأن الأدلة والبراهين قامت على نتاج العلم والعقل بينما لم تقم مثل هذه الأدلة على الدين. بل أن ما زعم الدين

(٩) المرجع السابق ص. ٢٣٠/ ١.

أنه أدلة على صحته ليست بالأدلة، والعقل المجرد لا يستطيع أن يقتحم مجال البحث عن الحقائق وأقصى ما يمكن العقل فعله هو العمل كأداة مفسرة للظواهر التي يكشف لنا العلم التجريبي عنها.

ومن التأثيرات التي تظهر في مسألة إنكار المعجزات وإنكار البعث بحجة أنهما يخالفان الدين، مسألة إغفال مباحث النبوات في الفلسفة الحديثة. فديكارت الذي هو أبو الفلسفة الحديثة اكتفى في دفاعه عن الدين بتقديم ادلته على وجود الإله، وعلى وجود نفس أو روح مفارقة للبدن وتظل حية بعد موت البدن. وكان ديكارت هو من حدد مسار الأسئلة الفلسفية في عصر الحداثة ولم تكن مسائل النبوات أو السمعيات[١٠] جزءًا من النقاش الفلسفي حتى أن إيمانويل كانط الذي يعتبره الغربيون الفيلسوف الذي دق المسمار الأخير في نعش علم ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) لم يناقش مسألة النبوات ضمن المتضادات الأربعة (antinomies) التي أفقدته الثقة في قدرة العقل المحض على الوصول إلى الحقائق. وقد كان من نتاج هذا الإغفال عدم التنبه لكيفية إدراج أمور مثل المعجزات والبعث في النقاش الفلسفي. وبما أن الغرب قد غفل عن ذلك، تبعه المثقفون المصريون من الشرق الإسلامي كما عبر عنهم الأستاذ فريد وجدي، خاصة أنهم لا يعرفون علم الكلام وبالتالي لم يجدوا أمامهم بديلًا فكريا عن تقليد الغرب.

---

(١٠) مسائل السمعيات هي المسائل العقدية التي لا تكون معرفتها من خلال العقل والتجربة لكن من خلال الوحي. هذه المسائل أحيانًا تحتاج إلى مقدمات فلسفية مثل بعض المسائل المتعلقة بيوم القيامة، وإعادة الأرواح إلى الأجساد بعد أن تحللت الأجساد. هناك مقدمات فلسفية لو لم تناقش ربما يتوهم متوهِّم أن هذا أمر لا يقبله العقل.

هذه التأثيرات كما سبقت الإشارة ناتجة عن الأثر البالغ لثلاثة فلاسفة أوروبيين معروفين. الأول هو إيمانويل كانط، والثاني هو فريدرش هيجل، والثالث هو أوجوست كومت. فكانط هو صاحب كتاب نقد العقل المحض الذي قضىٰ علىٰ المحاولات التي حاولتها أوروبا في القرن والنصف الذَين سبقاه لإثبات وجود خالق. وهيجل جاء بعد كانط وتأثر بمتضاداته فجاء بمذهبه الذي يقبل اجتماع الضدين والذي اعتبره الأستاذ أحمد أمين نقضًا للقواعد العقلية التي بنىٰ عليها المتكلمون علومهم. وكومت هو مؤسس المذهب الوضعي أو الإثباتي (positivism) الذي يؤمن بأنه لا توجد موجودات إلا في مادة وبالتالي كل ما هو متجرد عن المادة مثل الإله فهو غير موجود. ونتيجة هذا الفكر تبررت الفكرة التي يدعو إليها وجدي في كتاباته وهي أن كل معقول لا يؤيده محسوس فهو غير موجود أو غير علمي.

يرىٰ الشيخ مصطفىٰ صبري أن التأثر بهذه الأفكار هو محض تقليد. بمعنىٰ أنه أخذ لأقوال الغربيين بدون دليل. وهذا الأمر يعتبره الشيخ مصطفىٰ صبري مذمومًا في غاية الذم لأن التقليد في العقائد غير جائز بين المسلمين فكيف إذا قلدوا غير أبناء دينهم؟ كيف للمسلم الذي نهي عن أخذ معتقده بدون دليل أن يأخذ معتقد غيره بدون دليل؟ الشيخ مصطفىٰ صبري يرىٰ أن العقل هو معيار الصحة والفساد، وأن العقل يقف في صفه وليس في صف الغربيين، وأن المثقفين المعاصرين له لا يتبعون العقل لكنهم يتبعون أقوال الغربيين بغير دليل.

الاستدلال على وجود اللّه[١١]:

استدل الشيخ مصطفى صبري على وجود الله بالدليلين المعروفَين لدى علماء الكلام: الأول دليل الإمكان، والثاني دليل الحدوث. هذين الدليلين مبنيين على أن العقل مصدر من مصادر المعرفة، وعلى أن هناك مبادئ أولى في الذهن لا يمكن للعقل أن يقضي بخلافها وحكمه فيها يكون حكمًا مطابقًا للواقع. وهاتين المقدمتين قد تعرضتا للنقد في فلسفة الحداثة فلم يعتبرهما مثقفو عصر الشيخ مصطفى مقبولتين، فوجب تقديمهما قبل الشروع في الاستدلال، ثم سيأتي الرد على الاعتراضات الواردة على الاستدلال العقلي[١٢] على وجود الله من قِبَل إيمانويل كانط.

قبل الاستدلال على وجود الإله، يقدِّم علماء الكلام مبحثين مهمين: الأول مبحث وجود حقائق ثابتة وإمكان العلم بها، والثاني مبحث الأسباب أو المصادر التي من خلالها يتوصل إلى هذا العلم. يقول الإمام النسفي: "حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافًا للسوفسطائية. وأسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة والخبر الصادق والعقل." هاتان العباراتان من أشهر العبارات بين طلبة العلم لأن كتاب شرح العقائد

(١١) الكلام الذي سيأتي عن الاستدلال على وجود الله ليس مجرد تقديم لكلام الشيخ لكن فيه توضيح لبعض المفاهيم التي يستخدمها. هذا التقديم مبني على النموذج المعرفي للشيخ الذي تلقاه وتبناه من خلال تعلمه لعلم الكلام الإسلامي. وكلام الشيه مصطفى عن الدليل على وجود الله يبدأ في موقف العقل ص. ١٠٦/ ٢.

(١٢) أقول الاستدلال العقلي لأن كانط لم يعترض على كل الأدلة على وجود إله، بل قدم هو نفسه دليلًا أخلاقيا في كتابه نقد العقل العملي.

النسفية للإمام التفتازاني يعد من أهم الكتب التي يدرسها طلبة العلم المتوسطون في علم الكلام. وقد كان يدرَّس في المناهج التي درسها الشيخ مصطفىٰ صبري في الدولة العثمانية وقد أشار إلىٰ هذا الكتاب والحواشي المكتوبة عليه غير مرة في كتابه موقف العقل.

يقول الإمام النسفي أن الموجودات التي نراها وغيرها لها حقائق في ذاتها، وأنه من الممكن التوصل لهذه الحقائق. وقوله بخلاف السوفسطائية يعني: أن السوفسطائية يخالفون في هذه المسألة فينكرون كون الحقائق ثابتة والعلم متحقق ولهم في ذلك أكثر من مذهب لا يتسع المقام لذكرهم هنا. ثم يقول أن هذا العلم بحقائق الأشياء إما أن يكون من طريق الحواس، أو من طريق الخبر الصادق، أو من طريق العقل. والطريق الأول الذي هو طريق الحواس ظاهر، فقارئ هذه السطور، أو سامع من يقرأها يدرك بحاسة من حواسه (أو أكثر) أن هذه السطور موجودة. أما الطريق الثاني الذي هو الخبر الصادق، فكلنا يعلم بوجود أشياء بالرغم من عدم إدراكها بحاسة من الحواس، كعلمنا بأنه هناك شخص اسمه نابليون كان يحكم فرنسا، وكعلمنا بأن هناك فيلسوف اسمه أرسطو عاش في اليونان قبل ألفين وأربعمائة سنة، وكعلمنا بنتائج بعض المعادلات الكيميائية التي درسناها في المدارس ولم نختبرها في المعمل. فكل هذه المعلومات التي نحن متأكدين منها لم تكن معرفتنا إياها نتيجة لمشاهدتنا لها بحواسنا لكن عن طريق إخبار مخبر لنا إما مشافهة، أو عن طريق كتابة، أو غير ذلك من الطرق.

والطريق الثالث إلىٰ المعرفة الذي هو العقل هو الأهم في الموضوع الذي نحن

بصدده، لأنه هو الآلة التي وجه إليها الكثير من النقد خلال الحداثة إلى أن تزعزعت الثقة فيه عند معاصري الشيخ مصطفى صبري.

العقل مصدر من مصادر المعرفة، وهذه نقطة مهمة جدًا تختلف فيها الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الإسلامي عن فلسفة الحداثة. إن أوروبا –ومن بعدها العالم الحديث بأجمعه– فقدت الثقة في إمكان الاستدلال على العقائد الدينية بل وعلى الكثير من الأمور الأخرى من خلال العقل، وذلك بعد أن وجَّه كانط ما اعتبره الكثيرون ضربةً قاضيةً للعقل، وبالتالي لعلم ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) الذي يعتمد على النظر والاستدلال العقلي. أما المسلمون، فقد احتفظ علماؤهم بقيمة العقل ودافعوا عنها وظل العقل عندهم مصدرًا أساسيًّا من مصادر المعرفة. فالعقل عندهم يجوز التوصل به إلى الحقائق، خلافًا لمن اعترض على ذلك، والمعترضون على أكثر من نوع. لكن قبل أن نخوض في الخلاف ينبغي لنا أن نتكلم أولًا عن معنى العقل في اللغة[١٣] وفي الفلسفة الإسلامية.

العقل في اللغة هو القيد. فأنا إن عقلت شيئًا معناه أني قيدته أو ربطته. ومما عبر عنه به في المعنى الفلسفي هو **قوة في للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات**. والمقصود بالقوة أنه قابلية، بمعنى أنه يجعل نفس الإنسان قابلةً للعلوم والإدراكات، فالعقل نفسه ليس هو العلوم والإدراكات إنما هو الشيء الذي يجعل نفس الإنسان فيها القابلية لأن

(١٣) من المهم التأكيد على وثاقة الصلة بين اللغة والفكر في الفكر الإسلامي الأصيل.

تحصِّل العلوم والإدراكات، ولولاه لما أصبحت لنفس الإنسان هذه القدرة. والنفس هنا هي الروح بالمعنى الشرعي، وهي ما يشير إليه الإنسان عندما يقول عن نفسه أنا، أو يقول فعلتُ كذا. وهذا العقل سمي عقلًا لأنه يقيد الإنسان عن ارتكاب القبائح، وعن الوقوع في الخطأ في الفكر إن أُحسِنَ استعماله. وتفعيل هذه القوة يكون على درجات لكن الخوض في ذلك ليس مما نحتاجه في هذه الورقة.

والعقل كي نعرف ما هي القضايا التي يخوض فيها علينا أن نعرف ما معنى أن يحكم العقل على شيء. علماء المسلمين قالوا أن الحكم العقلي هو: **نسبة أمر إلى أمر من غير توقف على تجربة أو وضع واضع**. بمعنى أن الحكم العقلي هو الحكم الذي يتوصل إليه الإنسان إلى معلومات ليست مستفادة من تجربة، أو من وضع وضعه أحد، كالقانون الذي تضعه الدولة. فعلمنا مثلًا بأن النار تحرق الورق، علمناه من التجربة، لم يكفنا فيه مجرد تصور معنى النار، ومجرد تصور معنى الورقة، بل وجب علينا أن نضع الورقة في النار حتى نعرف أنها تحترق عند مماسة النار. فهذا علم متوقف على تجربة. وعلمنا بأن صلاة الصبح ركعتين لم تكن التجربة هي ما أوصلتنا إليه، ولم يكن مجرد تصور معنى الصلاة ومعنى الصبح هو السبيل إلى معرفتنا أن صلاة الصبح ركعتين، بل احتجنا إلى أحد يقرر لنا هذا الحكم، وبالتالي أصبح هذا الحكم مبني على وضع واضع، وهو الله سبحانه وتعالى. كذلك مثلًا العلم بأنه يجب على السيارات أن تقف إن كانت الإشارة المرورية حمراء، هو ليس حكم منا بناء على تجربة أو مجرد تصور معنى الإشارة الحمراء،

لكن هناك واضع وضع هذا النظام لتسيير الأمور.

فنحن إذا أردنا الكلام عن الحكم العقلي، نقول أنه الحكم الغير متوقف على تجربة أو وضع واضع. هذا الحكم مثاله مثلًا أن كل الشيء أكبر من بعضه. فنحن بمجرد تصورنا معنى الكل، ومعنى الجزء، نحكم بأن الكل أكبر من الجزء ونتأكد ونقطع أنه لا يمكن أن تكون الحقيقة بخلاف هذا الحكم. كذلك الحكم باستحالة اجتماع النقيضين. والنقيضان هما أمران لا يجتمعان ولا يرتفعان معًا، كالوقوف والجلوس. فأنت إن علمت أن الشخص الذي بجوارك جالس الآن تعلم يقينًا أنه ليس بواقف، والعكس صحيح، فإنك إن علمت أنه واقف الآن تعلم يقينًا أنه ليس بجالس. وهذا العلم لا يحصل لك بالتجربة أو بوضع واضع لكن بمجرد تصور معنيين هما الوقوف والجلوس. والعقل يحكم على الأشياء إما بالوجوب، أو الإمكان، أو الاستحالة، وهذه الأحكام الثلاثة مجموعة في بيت شعر للإمام أحمد الدردير:

أقسام الحكم العقلي لا محالة هي الوجوب ثم الاستحالة

ثم الجواز ثالث الأقسام فافهم مُنِحْتَ لذة الأفهام

الواجب العقلي هو ما لا يجوز في العقل عدمه، مثل كون الكل أكبر من الجزء. والمستحيل وهو المقابل للواجب خو ما لا يجوز في العقل وجوده، مثل اجتماع النقيضين أو كون الجزء أكبر من الكل. والممكن أو الجائز هو ما يمكن أو يجوز في العقل وجوده أو عدمه، مثل كون النار محرقة للورق أو كون صلاة الصبح ركعتين. فهذه أمور لا يحكم

العقل فيها بمجرد تصور الطرفين فلا يحكم فيها، ويتركها لمصادر أخرىٰ للمعرفة، ويكون دوره في مثل هذه الأحكام أن يؤكد أنها لا يكون اجتماعها ببعض مؤديًا إلىٰ مستحيل. فمثلًا إن قال أحد أن صلاة الصبح ركعتين، وقال آخر بل ثلاث ركعات، هنا يتدخل العقل ويقول: لا نستطيع ان نجمع بين القولين لأن اجتماعهما يكون اجتماعًا للنقيضين. فهذا التدخل يكون بمثابة دعوة من العقل لمزيد من النظر والتحري حتىٰ تتبيّن صحة أحد القولين علىٰ حساب الآخر فَنَسْلَم من التناقض. فالعقل هنا قيَّد صاحبَه، ومنعه من التصديق بالقولين معًا وطلب منه مزيدًا من التحري والدقة.

المبادئ الأولى[١٤]:

الشيخ مصطفىٰ صبري عقد فصلًا في كتابه عن المبادئ الأولىٰ، وهو أمر غير معتاد في كتب علم الكلام. فهذه المبادئ لم تكن تناقش مجتمعة تحت هذا العنوان عند علماء الكلام لكنها كانت متفرقة في مباحث مختلفة، والشيخ مصطفىٰ جمعها في فصل واحد لـمَّا رأىٰ ذلك ضروريًّا في مهمته الفكرية. كلمة مبادئ مشتقة من البداية، والكلام عن المبادئ الأولىٰ (first principles) في الفلسفة يكون عن أحكام تعتبر هي النقاط الأولىٰ في المعرفة البشرية ويكون ما غيرها مبني عليها، مثل مبدأ عدم التناقض الذي يمنع العقل به من اجتماع النقيضين. هذا المبدأ يعد مثل حجر الأساس لكل المعرفة البشرية، فهو إن تم هدمه تنهدم معه جميع المعارف. لماذا؟ لأن كل شيء سيصبح جائزًا ولن يمكننا معرفة

(١٤) انظر موقف العقل ص. ٣٢٧/ ٢.

أي شيء. سيصبح من الممكن أن يقول شخص: أنا موجود في المكان الفلاني الآن فيقول آخر: نعم صحيح لكنك لست موجودًا فيه، ويقول شخص: التجربة العلمية قالت أن الحدث (س) والحدث (ص) يحصلان معًا، فيقول آخر نعم لكنهما لا يحصلان معًا، ويقول شهود عيان: رأينا فلانًا يقتل علانًا، فيقول فلان: نعم صحيح لكني لم أقتله. هذا المبدأ هو الذي يسمح لنا بالفصل في هذه القضايا وبدونه لن نتمكن من الحكم والفصل في أي من هذه الأمور.

ومن المبادئ الأولى كذلك مبدأ العلية. فالإنسان يدرك بداهة أنه كلما حَدَثَ حَدَثٌ في حياته أن هذا الحدث له سبب، حتى أن العلماء قالوا أن هذا المبدأ معروف عند الحيوانات. فإننا إن راقبنا تصرف حمار مثلًا، وأحدثنا صوتًا عاليًا وراءه فإنه يلتفت ليرى السبب الذي أدى إلى هذه الأمر المستجد، ولا يعتبر أنه حدث عشوائي بل يعتبر أن كل أمر يحدث يجب أن تكون له علة. ويقول الشيخ مصطفى صبري أن كل فعل لا بد له من فاعل. فنحن إن رأينا جريمة قتل عرفنا لا محالةَ أن هناك قاتل ولا نقول أن هذه الجريمة حصلت بنفسها. هذا الأمر بديهي لا يحتاج إلى استدلال ويكون من المبادئ الأولى التي تنبني عليها سائر العلوم. وكذلك من الممكن أن ينبِّه على مبدأ العلية بما يسمونه: بطلان الترجيح بلا مرجح، وهو أمرٌ يوضح سبب استحالة حدوث شيء بغير سبب. معنى أن شيء حدث أنه لم يكن ثم كان. هذا الشيء الذي لم يكن ثم كان، هل يقع تحت الوجوب العقلي، أم الإمكان العقلي، أم الاستحالة العقلية؟ إن كان واجبًا، كان من المفترض أن

يكون هذا الشيء موجودًا في الأزل ليس له بداية، لأن الواجب يستحيل عدمه في أي وقت[١٥] وهذا الشيء كان معدومًا في وقت من الأوقات ثم أصبح موجودًا. بالتالي لا يمكن أن يكون هذا الشيء واجبًا. كذلك لا يمكن لهذا الشيء مستحيلًا لأن المستحيل لا يمكن أن يكون موجودًا، والواقع أن هذا الشيء وجد بالفعل. إذن، لا يتبقى إلا أن يكون هذا الشيء إلا ممكنًا. والممكن هو أمر ليس بالواجب، وليس بالمستحيل، يجوز له الوجود ويجوز له العدم، طبيعته **لا تُرَجِّح وجوده على عدمه**، وبالتالي يحتاج لشيء خارج طبيعته **يرجِّح وجوده على عدمه**. وترجيح الوجود على العدم بدون مرجِّح محال، لأن إمكانية كون هذا الشيء موجودًا **تساوي** إمكانية كونه معدومًا، فإن كانت طبيعة هذا الشيء ترجح وجوده على عدمه لما أصبح ممكنًا، لكنا أثبتنا أنه ممكن. ويستحيل أن يكون وجود الشيء الممكن مع تساويه مع عدمه راجحًا على العدم فيكون وجود هذا الشيء **مساويًا لعدمه وغير مساوٍ لعدمه** في نفس الوقت، وهذا تناقض، والتناقض أمر مرفوض من جانب العقل لا يستطيع أن يقبله. وبذلك يتضح أنه من المستحيل أن يحصل شيء بدون سبب خارج عن طبيعته، ويتبيَّن أن مبدأ العلية لا يمكن أن يتخلف.

ومن المبادئ الأولى التي لا تتخلف كذلك بطلان الدور، والدور هو توقف الشيء على نفسه. فنحن مثلًا إن قلنا أن: كل ما جاء في القرآن فهو حق، من الممكن أن يوجَّه لنا سؤال: وما الدليل على ذلك؟ فنقول: لأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جاء به من عند ربه، فيكون السؤال: وكيف عرفتم ذلك؟ إن قلنا: لأن القرآن جاء بذلك وكل

(١٥) لأن الواجب كما قلنا هو ما لا يجوِّز العقل عدمه.

ما جاء في القرآن فهو حق، نصبح قد ارتكبنا مغالطة منطقية، لأن استدلالنا فيه دور، لأننا جعلنا الدليل على القرآن هو القرآن، ونصبح في حلقة مفرغة، نصدق القرآن بناء على صدق النبي المبني على صدق القرآن المبني على صدق النبي إلى آخره، فنظل في هذه الدائرة لا نخرج منها أبدًا. والمبدأ الأخير الذي نحتاج إليه قبل الخوض في مسألة وجود الله هو مبدأ بطلان التسلسل. والتسلسل هو أن يكون لحدث سبب، ولهذا السبب سبب ثاني، وللسبب الثاني سبب ثالث إلى ما لا نهاية. وهذا التسلسل مستحيل لأنه يعني أن هناك سلسلة لا نهائية من الأحداث قد حدثت وانقضت حتى يحدث الحديث الأخير الذي أمامنا. وهذا الأمر يشتمل على تناقض واضح لأنه يصبح بمثابة قولنا: هناك أمور **لا نهائية** قد حدثت **وانتهت** فيكون ما لا نهاية له قد انتهى وهذا تناقض واضح. والدليل الأشهر على بطلان إمكان وجود ما لا نهاية له من الأحداث في الماضي يسمونه برهان التطبيق الذي يفترض أننا نمد خطًّا من سنة ٢٠١٧م إلى ما لا نهاية له في الماضي، ونمد خطًا آخر مثلًا من السنة ١٩٠٠م إلى ما لا نهاية له في الماضي. من المؤكد أن يكون الخط بين ٢٠١٧ وما لا نهاية له في الماضي أطول من الخط بين ١٩٠٠ وما لا نهاية له في الماضي، فيكون الخط بين ١٩٠٠ وما لا نهاية له في الماضي له نهاية لأنه يتوقف في مكان والخط الآخر من ٢٠١٧ ما زال مستمرًا. والفرق بين خط ٢٠١٧ وخط ١٩٠٠ المتناهي مقداره ١١٧، وهو فرق متناهي وبالتالي يكون الخط من ٢٠١٧ إلى ما لا نهاية له في الماضي متناهٍ كذلك لأنه يزيد عن المتناهي بقدرٍ متناهٍ.

بعد توضيح هذه المبادئ الأولى التي لا ينبغي أن يختلف عليها العقلاء، سيتضح أن الاستدلال على وجود الإله أمر يسير بتيسير الله تعالى وبفضله. وفي هذا الفصل من الورقة سنستعرض دليلان على وجود الإله، الأول اسمه دليل الإمكان والثاني اسمه دليل الحدوث.

دليل الإمكان يقول ببساطة أن العالم ممكن، أي أنه ليس بواجب وليس بمستحيل. كون العالم غير مستحيل أمر واضح، وذلك لأنه لو كان مستحيلًا لما أمكن أن يكون موجودًا. والعالم كذلك ليس واجبًا، لأن العقل يجوِّز أن يكون العالم غير موجود، لأن عدم وجود العالم لا تترتب عليه استحالة عقلية، وبالتالي يصبح العالم ممكنًا محتاجًا إلى موجد نظرًا لمبدأ العلية وأن الترجيح بلا مرجِّح مُحال. إذن، العالم يجب أن يكون له سبب. وهذا السبب إما أن يكون ممكنًا وإما أن يكون واجبًا، فإن كان هذا السبب ممكنًا يجب أن يكون له سبب إلى أن ننتهي إلى سبب أول واجب وإلا سينتهي بنا الأمر إلى سلسلة لا نهاية لها من الأسباب الممكنة وهو أمر محال. هذا السبب الأول ينبغي أن يكون واجبًا، وإنكار وجود هذا السبب وكونه واجبًا غير محتاج إلى سبب آخر يؤدي إلى استحالة عقلية وبالتالي نستنتج أن: وجود العالم بدون سبب (خالق) مستحيل.

والدليل الآخر على وجود الخالق هو دليل الحدوث. هذا الدليل يستنتج من كون العالم له بداية أن العالم له إله، لأن طبقًا لمبدأ العلية يستحيل أن يوجد شيء من العدم دون أن يكون له سبب. وهذا الإله يكون خالقًا غير مخلوق لأن المخلوق يحتاج إلى خالق

فيجب أن تتوقف سلسلة المخلوقات عند خالق ليس له خالق آخر لأن التسلسل أمر مستحيل. إذن العقل لا يقبل أن يكون هذا العالم قد بدأ بدون وجود خالق. وكون العالم له بداية هو أمر يستدل عليه علماء الإسلام من قبل الانفجار العظيم (big bang) وإن جاء يوم تم فيه استبدال نظرية الانفجار العظيم بنظرية أخرى، لن يتأثر هذا الدليل لأن دليل علماء الإسلام لا يعتمد على الانفجار العظيم فهو سابق لها فلا يعتمد في وجوده عليها.

هدم كانط للاستدلال [١٦]:

إيمانويل كانط هو أحد أهم الفلاسفة في تاريخ البشرية. فقد اعتبر نفسه أنه مقدِّمًا لثورة في الفلسفة بمثابة ثورة كوبرنكوس في الفلك، لأن كلاهما قلب علمه رأسًا على عقب[١٧]. فكوبرنكوس قال أن الشمس هي مركز المجرة وليس الأرض، وكانط فعل أمرًا شبيهًا في الفلسفة. فقد ادعى أن العقل لا يتأثر بالموجودات فتفرض نفسها عليه وعلى تفكيره، بل العكس هو ما يحصل وهو أن العقل لديه قوالب داخلية يفرضها على الواقع ولنضرب على ذلك مثالًا. كانط مثلًا يقول أنه لا يوجد شيء اسمه زمان أو مكان لكنهما أمور داخلية في العقل، يفرضها هو على الموجودات فيضعها في قوالب الزمان والمكان حتى يتمكن من فهمها. كذلك مبدأ مثل مبدأ العلية الذي يعتبر من المبادئ

(١٦) لقراءة عرض الشيخ مصطفى لاعتراضات كانط ثم رد الشيخ مصطفى عليها انظر موقف العقل بداية من ص. ٢٠٥/ ٢

(١٧) انظر مقدمة كتابه: نقد العقل المحض.

الأولى اعتبره كانط من المبادئ التي يفرضها العقل على الكون حتى يتمكن من فهمه لكنه لا ينطبق بالضرورة على الكون في الحقيقة. هذا المبدأ الذي هو مبدأ العلية إذا انهدم كما هدمه كانط، يكون قد انهدم ركنٌ أساسيٌّ في الاستدلال على وجود خالق وبالتالي يكون الاستدلال على وجود الإله قد انهدم، وهذا بالفعل ما حصل في أوروبا، ففقدت الثقة في إمكانية إثبات وجود إله. هذا ما دع الشيخ مصطفى صبري للرد على كانط في هذه المسألة كما سيأتي بعد أسطر قليلة.

كانط في كتابه نقد العقل المحض انتقد الدليلين الأشهر في أوروبا على وجود الخالق: الدليل الكوني والدليل الوجودي. أما الدليل الكوني فهو الذي يستدل على وجود الإله بصفته خالق لهذا الكون، وهذا الدليل أقرب لدليلَي الإمكان والحدوث اللذان ذُكِرا في الفصل الماضي. وأما الدليل الوجودي هو الذي يثبت وجود الخالق بمجرد تصور مفهومه. فهو يقول ببساطة أن الله هو الكائن الأكمل الذي لا يُتصَّور وجود ما هو أكمل منه، وبما أن الوجودَ صفةُ كمال ينبغي لهذا الكائن أن يكون موجودًا لأنه لو لم يكن موجودًا لأمكن تصور كائنًا أكمل منه. وهذا الدليل الوجودي لا وجود له في الفكر الإسلامي الأصيل، بل هو دليل ابتكره المسيحيون، والشيخ مصطفى صبري لما وصله لم يعتبره دليلًا.

كانط انتقد الدليل الكوني لأكثر من السبب أذكر منهما سببين: الأول أنه أنكر بطلان التسلسل، وقد مر الدليل على بطلان التسلسل، والثاني أنه أنكر أن مبدأ العلية يمكن تطبيقه في غير الحسيات.

كانط في فكره متأثر تأثرًا شديدًا بهيوم، وروسو، ونيوتن. فتأثره بهيوم جعله يشك في مبدأ العلية، وتأثره بروسو جعله يشك في جدوى الميتافيزيقا كعلم، وتأثره بنيوتن جعله يفكر في تحويل مفاهيم الميتافيزيقا إلى قيم ومفاهيم تخدم فيزياء نيوتن وتسلِّمها من كل الاعتراضات الواردة عليها. هذه التأثرات هي التي جعلت كانط يعيد النظر في جدوى العلم الإلهي الذي لم تثبت نتائجه بالوضوح الذي ثبتت به نتائج الفيزياء خاصة وأن أثره في الحياة العملية لا يكاد يظهر. فهذا العلم كثر فيه الخلاف والتخبط الشديد في المائة وأربعين سنة السابقة لكانط التي بدأت مع تأسيس ديكارت للفلسفة الحديثة.

إنكار كانط للتسلسل لا يعني أنه يرى أن التسلسل حاصل بالفعل. غاية ما يعنيه كانط هو أنه كما أن هناك أمور تقدَّم على أنها أدلة على بطلان التسلسل، هناك أمور تقدَّم على أنها أدلة على جوازه، وليس لأحد هذه الأدلة مزية على الآخر. بالتالي، يعتبر كانط مسألة التسلسل مسألة خارجة عن حدود معرفة العقل وبالتالي لا يسلِّم بما يسلِّم به من يقول أن التسلسل باطل. وبالتالي لا يعتبر الدليل على وجود الخالق دليلًا مكتملًا لأن أحد مقدماته مقدمة باطلة. وهو كذلك يقول: أنتم تثبتون صانعًا لهذا الكون لكن ما الذي يثبت أن صانع هذا الكون هو الإله؟ أنتم لديكم فكرةً مسبقةً عن الإله وبالتالي تفرضونها على ما تقتنعون أنه موجِد هذا الكون لكنكم ليس لديكم دليل على ذلك. بل ربما تكون علة الكون هي المادة، أو مجموع الكائنات.

ردود صبري على اعتراضات كانط:

الشيخ مصطفى صبري يرى أن التسلسل باطل وقد قدم الدليل على ذلك، وكذلك قدم الدليل على مبدأ العلية. وأبدى الشيخ مصطفى اعتراضه على قول كانط: لا يمكننا تطبيق مبدأ العلية على غير المحسوسات لأن الكون الذي يجوِّز كانط وجوده من غير سبب هو من قبيل المحسوسات التي يرى كانط انطباق مبدأ العلية عليه. إنما غير المحسوس هو الإله الذي هو سبب وجود الكون، ويكون هو ما لا ينطبق عليه مبدأ العلية. أما الكون فيظل محسوسًا داخلًا في نطاق ما يحتاج إلى علة.

كذلك يعترض الشيخ مصطفى صبري على قول كانط بأن علة الكون من الممكن أن تكون مجموع الكائنات، إذ كيف يكون مجموع كائنات – كل كائن منها بمفردة له بداية – غير ذي بداية؟ والمادة هي الأخرى لا تصلح لأن تكون موجدةً للعالم، إذ المادة هي نفسها أمر غير مستقل، يحتاج في وجوده إلى موجود غيره وهو الصورة. فالمادة التي يتكون منها هذا العالم هي عبارة عن عناصر متركبة بشكل معيَّن لتخرج بالطريقة التي هي عليها الآن. فهذه العناصر كان من الممكن أن تتكون بطريقة مختلفة تؤدي إلى كون مغاير للكون الذي نعيش فيه الآن لكنها تكوَّنت على هيئة معينة. هذه الهيئة هي نتيجة تصوِّر المادة بصورة معينة لا تستقل المادة عنها، وبالتالي لا تكون المادة صالحة لأن تكون سبب وجود العالم لأنها في نفسها غير مستقلة محتاجة إلى غيرها في وجودها. المادة هي أمر سلبي قابل للوجود إن تصوَّرت بصورة معيَّنة، فكيف يكون هذا الأمر السلبي فاعلًا؟

وقول كانط أن العلية هي أمر يختلقه الذهن في محاولة فهمه للمحسوسات غير مقبول عند الشيخ مصطفى صبري، وذلك لعدة أسباب. منها أننا نتأثر بموجودات بغير

إرادتنا. فهناك أمور تحصل لنا ونحن لا نريدها أن تحصل، وأمور نريدها أن تحصل لنا لكنها لا تحصل، وذلك لأننا لا نتحكم في ذلك لكن لكون هناك أمور مستقلة عنا تؤثر فينا، تكون علة لإحساسنا وبالتالي تكون دليلًا على مبدأ العلية. كذلك إدراكنا للعلية هو في حقيقته إدراك. هذا الإدراك هو من مقولة الانفعال وهي من الأعراض النسبية التي يلزم من تصور أحد طرفيها تصور طرف آخر. بمعنى أننا إذا تصورنا مدرِكًا وهو الإنسان، يجب أن نتصور ونتأكد من وجود مُدرَكًا وهو في هذه الحالة سبب إدراكنا للسببية.

خاتمة:

بذلك يتضح أن علم الكلام لم يقف عاجزًا أمام الفلسفة الغربية. فالشيخ مصطفى من العلماء الذين نظروا في الفلسفة الغربية وبحثوا عن أصول الخلاف بين الحداثيين وبين علماء الإسلام وهي أصول ترجع إلى الفلسفة. الشيخ مصطفى لم ينشغل بجزئيات الخلاف مع المثقفين المعاصرين له لكنه ذهب ليناقش الأفكار التي أدت بالمثقفين المعاصرين إلى ما ذهبوا إليه من المفاهيم الدينية. لذلك لما يقول له أحد المعاصرين: لا دليل على وجود الإله، يستطيع الشيخ مصطفى صبري أن يقول: هذا مبني على كلام كانط، وأنا لا أتبع كلام أحد إلا إن أقنعني دليله، فإن رأيت دليله وأدركت ضعفه وسجلت اعتراضي عليه، لا أكون ملزَمًا بقبول كلامه. بل يصبح من يعتنق كلام كانط هو الملزم بدليلي العقلي الذي قدمته على وجود خالق لهذا الكون.

هذا النقاش يدعونا إلى إعادة النظر في علم الكلام وفي فلسفة الحداثة، والغوص في نقاشات كليهما حتى نعرف أصول الأفكار التي تُقَدَّم لنا في العالم، ونكون على بصيرة، ونكون أتباعًا للحقيقة لا أتباعًا لأشخاص معينين، وبهذا يكون الاستقلال الفكري. فالجمود لا يقتصر على بعض المفكرين المتدينين فحسب، بل هو موجود بكثرة عند من ينسب نفسه للحداثة والتنوير، لأنه يتبع كلامهم ويأخذه كمسلَّم دون أن يعرضه على العقل.

إصدارات أخرى من مبادرة سؤال (أبحاث)

1 . **قيمة السؤال**

2 . **الأخلاق والتجريبية**

3 . **مقتطفات من تاريخ الفلسفة في العالم الاسلامي**

4 . **الأزمة الروحية**

5. **هل السؤال ممنوع**

إصدارات أخرى من مبادرة سؤال (مطويات)

1. **من حقي ان اسأل**

2. **العقلية الخرافية**

3. **الايمان الاعمى**

استدلال الشيخ مصطفى صبري على وجود اللّه
في السياق الحداثي

لم يقبل علماء الدين الإسلامي على مر التاريخ أن يتركَ المسلم نفسه للشك، بل أقاموا أدلة عقلية يقينية على صحة العقائد الدينية؛ فيمكن للمسلم الذي تراوده شبه عقائدية أن يتأمل تلك الأدلة وينظر فيها؛ حتى تزول عنه الشبهات . وأوجبوا على من تَرِد عليه أسئلة في العقيدة أو شكوك في مسائلها أن يسارع في دفعها، والرجوع إلى مَن يجيب عن تلك الأسئلة من العلماء الصالحين. وقد ساعد على ذلك الثقافية العلمية والفكرية التي كانت تشجع على التساؤل وتنمي ثقافته بين المشتغلين بالعلم. لكن هذا التراث اختفى مع ضعف المنظومة العلمية الدينية، حتى غاب وجوده عن الأذهان، وصار المسلمون لا يعرفون شيئاً عن تراثهم الفكري، واستبدلوه بمفاهيم فكرية غربية لا تؤمن بإمكان الوصول لحقيقة مطلقة، مع أن هذه المفاهيم البديلة ليست أقوى فلسفيًا من المفاهيم الإسلامية كما يُبيِّن هذا البحث.

Suaal.org
facebook.com/suaalorg
twitter.com/suaalorg
youtube.com/suaalorg
instagram.com/suaalorg

مؤسسة طابة
Tabah Foundation
www.tabahfoundation.org
دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH
مبادرة سؤال هي إحدى مبادرات مؤسسة طابة للأبحاث والاستشارات